

اللوايانان (أوالثنين) لنوماس هوبز

بقلم
الكتور زكريا إبراهيم

أستاذ الفلسفة المساعد بكلية الآداب - جامعة القاهرة

سيرته :

الخامسة عشرة ، حيث تعلم المنطق المدرسي وعلم الطبيعة ، ولكنه لم يجد في التعاليم المدرسية المنصبة على فلسفة أرسطو شفاء ولا مغماً . ولم يلبث هوبز أن غادر الجامعة في سن مبكرة ، لكي يعمل معلماً خاصاً لأحد أبناء كبار اللوردات الإنجليز ، فاشتغل لدى أسرة كافندش ، وظل طوال حياته على صلة وثيقة ببيت ديفونشاير Devonshire وقد أتاح له هذا العمل فرصة السفر إلى الخارج ، فقام في صُحبة آل كافندش برحلات عديدة إلى الكثير من بلدان أوروبا . ولا شك أن رحلة هوبز إلى كل من فرنسا وإيطاليا قد أتاح له الفرصة للتعرف على الجيل الجديد النائر ضد الفلسفة المدرسية ، فوقف عن كُتب على لغة هذا الجيل ، وعاداته ، وأساليب تفكيره ... الخ وعلى أثر عودته من الخارج ، شرع يَدْرُسُ الكُتُب الكلاسيكيين القدماء بهمة ونشاط ، فعُنِيَ بدراسة الملاحم الشعرية اليونانية ، واهتم بقراءة كتب المؤرخين ، وقام بترجمة تيوسيديس إلى الإنجليزية (وهي ترجمة عرضها على صديقه بن جونسون Ben Jonson حتى ينقد له أسلوبها) .

حينما كان أسطول إسبانيا الضخم الذي كانوا يسمونه « الأرمادا » Armada يتأهب لغزو الأراضي البريطانية عام ١٥٨٨ ، انتشر الذعر في أرجاء الجزيرة البريطانية فكان أن وضعت زوجة راعي كنيسة وستبورت Westport مولودها الأول قبل الأوان ! وقد روى لنا هوبز نفسه هذه القصة في ترجمته الذاتية التي سجلها في أواخر أيامه ، فقال إن والدته حينما وضعت توأمين : « أنا ، والخوف » ! ولئن كان هوبز نفسه قد أرجع إلى هذا الحدث ما اتَّسَم به خُلُقُهُ من نزوع نحو الخوف ، فإن التطورات التي اختلفت على حياته تشهد له - على العكس - بطاقة فكرية ضخمة ، وميل شديد إلى الخصومات الأدبية ، وقدرة هائلة على إبداء الرأي في شجاعة وصراحة .

وقد أشرف على تربية هوبز منذ الصغر أحد أعمامه ، فإن والده كان قد غادر بيته واختفى من المدينة على أثر مشاجرة حدثت على أبواب الكنيسة . وتلقى الطفل تعليمه الأول في مدينة مالمسبرى - مسقط رأسه - ثم انتقل إلى أوكسفورد في سن

والمنطق ، وعلم الفلك ، ومبادئ القانون . وصحب هوبز إيرل دثونشاير إلى فرنسا وإيطاليا ، فكانت هذه الرحلة سبباً في توجيهه نحو الاهتمام بمسائل الفلسفة الطبيعية . والظاهر أن نقطة البداية في تفكير هوبز الفلسفي قد تحدت عندما كان يختلف على الأوساط العلمية في باريس حيث كان المجتمعون يتناقشون حول طبيعة الإدراك الحسي . وقد لاحظ هوبز في تلك الآونة أنه لو كانت الأشياء المادية (بما فيها من أجزاء عديدة) تظل دائماً في حالة سكون ، أو لا تخرج عن حالة الحركة المنتظمة ، لزال كل اختلاف بين الأشياء ، وبالتالي لما وُجدَ أي إدراك حسي . ولم يلبث هوبز أن استنتج من هذه الملاحظة أنه لا بد من أن يكون تغير الحركة علة لسائر الأشياء . ومنذ تلك اللحظة أصبحت مشكلة الحركة هي شغل هوبز الشاغل ، فصار كل همّه أن يقيم مذهباً فلسفياً يبنيه على المبدأ القائل بأن كل مافي الوجود هو في حالة حركة . وفي سنة ١٦٣٤ أتيحت لهوبز فرصة التعرف على العالم الإيطالي الكبير جاليليو . فاستفاد من هذه الصلة الشيء الكثير ، ويُقال إن جاليليو نفسه هو الذي أوحى إليه بفكرة تطبيق المنهج الهندسي أو الطريقة الاستنباطية على علم الأخلاق ، أسوةً بما كان متبعاً في علم الطبيعة أو الفيزياء . أما في باريس ، فقد انضم هوبز إلى حلقة المفكرين الذين كانوا يجتمعون مع الأب مرسين Mersenne - صديق كل من جاسندي Gassendi وديكارت - وكانت حلقة الأب مرسين أفضل بكثير من ألف مدرسة ، فاستطاع هوبز أن ينشر أفكاره في الأوساط الثقافية الفرنسية ، وأصبح منذ تلك اللحظة عالماً من أعلام الفكر الفلسفي في القرن السابع عشر ولم يلبث هوبز أن عاد إلى وطنه في عام ١٦٣٧ متأهباً لإصدار مجلدات ثلاثة ضخمة يشرح فيها أسس مذهبه الفلسفي ، في الجسم والإنسان والمجتمع السياسي .

وعلى أثر وفاة عائل أسرة كافندش ، قبل هوبز منصباً آخر كمعلم في أسرة السير كلفتون Sir Gervase Clifton ، وأتاح له هذا المنصب الجديد فرصة أخرى للسفر إلى القارة . وأثناء إقامته بباريس ، وقع بين يديه بطريق الصدفة كتاب « هندسة إقليدس » ، فوجد نفسه لأول مرة إزاء علم استنباطي دقيق أثار اهتمامه ، ولم تكن لديه أدنى فكرة عن هذا العلم من قبل : فإن برامج التعليم بالإنجلترا لم تكن تتضمن إذ ذاك أية دراسة رياضية ، بل كان البعض يعدّ الرياضيات بمثابة بدعة شيطانية خطيرة ! ولم يكن سرّ ولع هوبز بالرياضيات هو اكتشافه لبعض النظريات الهندسية ، بل إن ملاحظته في الرياضيات - كما صرح بذلك هو نفسه من بعد - إنما هو المنهج الهندسي من حيث هو فنٌ استدلالى . ومنذ تلك اللحظة لم يتخلّ هوبز مطلقاً عن هذا الاهتمام الكبير بالرياضيات ، بل ظلّ متمسكاً طوال حياته بالمنهج الاستنباطي . ولا شك أن حرص هوبز على الاستفادة من المنهج الرياضى قد قربّه من ديكارت ، ونأى به عن ليكون ، على الرغم من أنه كان صديقاً حميماً لبيكون . والمعروف أن هوبز قد اشتغل في أواخر أيامه سكرتيراً خاصاً لبيكون ، فضلاً عن أنه قد ساعده على ترجمة بعض مؤلفاته إلى اللغة اللاتينية . ولكن هوبز لم يتلقَ من بيكون أى تأثير حاسم في تطوره الفكري ، وإن كان قد اتفق معه على القول بأن المعرفة قوة ، وأن للفلسفة قيمة عملية ، وأن الطبيعة والإنسان - لا الله - هما موضوعا البحث الفلسفي .

وقد عادت أسرة كافندش فاستدعت هوبز لتعليم إيرل دثونشاير الجديد ، ولم يجد هوبز بُدّاً من الاستجابة لرغبتها ، فعكف على تزويد تلميذه الصغير بمعارف عصره في الآداب الكلاسيكية ، والبلاغة ،

سخط الجميع على آراء هوبز في خضوع الكنيسة للدولة ، واستاءت السلطات الكاثوليكية الفرنسية على وجه الخصوص لما أورده هوبز في كتابه من تعريض البابا . وقد عاد هوبز فأكد هذه الآراء بصورة أدق وأعمق في كتاب جديد ظهر له عام ١٦٥١ باسم «التنين» Leviathan ، تعرض فيه لدراسة المجتمع السياسي والديني ، من أجل بيان مادته وصورته وقوته . وفي هذا الكتاب الممتاز الذي شبه فيه هوبز السلطة المطلقة بذلك « الحيوان الضخم الذي يرهبه الجميع ، ولا يكاد يشبهه أى مخلوق آخر على سطح الأرض » ، نرى هوبز يحاول أن يقدم لنا نظرية جديدة في « السيادة السياسية » أقامها على أسس طبيعية مادية صرفة . وهذه النظرية الهامة التى أكسبت هوبز شهرة فلسفية كبرى في تاريخ الفكر السياسى ، هى ما سنعمد إلى عرضه بالتفصيل عند حديثنا عن كتاب «التنين» وتحليلنا له فيما يلى :

وقد عاد هوبز إلى إنجلترا في شتاء عام ١٦٥١ ، وكانت حرية الصحافة مكفولة إذ ذاك في الأراضي البريطانية ، فاستغل هوبز هذه الفرصة لنشر مؤلفاته . وهكذا ظهر له عام ١٦٥٥ كتاب في المادة أو الجسم De Corpore ، تضمن آراء في المنطق ، ونظرية الحركات والمقادير ، ونظرية الظواهر الطبيعية ، وبعض مبادئ في الفلسفة الأولى . وبعد ثلاث سنوات من ظهور هذا الكتاب ، أصدر هوبز عام ١٦٥٨ كتاباً آخر بعنوان « في الإنسان » De Homine . تضمن في الجانب الأكبر منه دراسة في البصريات (ألقى فيها بعض الأضواء على طبيعة حس الإبصار) ، وبحثاً قصيراً في سيكولوجية اللغة والعواطف . وبظهور هذا الكتاب ، اكتمل مذهب هوبز بمجلداته الثلاثة في المادة ، والإنسان ، والدولة ، وإن كان أى مؤلف من هذه المؤلفات الثلاثة لا يقارن - من حيث الشكل أو من حيث الموضوع - بكتاب هوبز

بيد أن تنفيذ هذا المشروع الضخم قد تأخر طويلاً ، بسبب نشوب الحرب الأهلية في إنجلترا ، فلم يستطع هوبز أن يُخرج للناس مذهباً فلسفياً متكاملًا يدرس فيه على التعاقب قوانين المادة ، والإنسان ، والدولة ، وفقاً للمنهج الاستنباطى الذى كان يأمل تطبيقه على الأخلاق والسياسة . ولكن عام ١٦٤٠ قد شهد مولد كتاب صغير لهوبز تضمن السمات الجوهرية لنظرياته السيكلوجية والأخلاقية والسياسية بعنوان : « مبادئ القانون الطبيعى والسياسى » . ولما تزايدت الاضطرابات السياسية في إنجلترا ، وشرع البرلمان الجديد يهاجم بعنف أنصار الملكية ، اضطر هوبز إلى السفر مرة أخرى إلى فرنسا ، فاستقر به المقام في باريس حيث بقى بها حوالى إحدى عشرة سنة . وقد رحب الأب مرسين بعودة هوبز إلى فرنسا واختاره ضمن جماعة المفكرين الذين طلب إليهم نقد « تأملات » ديكارت . وقد كان النقد الذى وجهه هوبز إلى الفلسفة الديكارتية بمثابة وثيقة هامة تضمنت شتى العناصر الأساسية لمذهبه ، فكشف لنا هذا النقد عن نزعة هوبز الطبيعية المادية ، حتى قبل أن يكون قد تمكن من صياغتها في صورتها المذهبية النهائية .

وظل هوبز يواصل دراساته العلمية ، ولكن فكره بقى مشغولاً بالآزمات السياسية التى كانت تعانها بلاده ، فظهر له عام ١٦٤٢ كتاب صغير باسم « الدولة » أو « المجتمع السياسى » De Cive (كان بمثابة توسيع للجزء الأخير من كتابه السابق « مبادئ القانون ») ، أكد فيه تعارض حالة الطبيعة أو الفطرة مع الحياة السياسية ، ونادى فيه أيضاً بضرورة إعطاء السلطة السياسية حق تنظيم الأمور الدينية والمشاكل الكنسية . وقد ظهرت لهذا الكتاب طبعة جديدة موسّعة عام ١٦٤٧ ، كانت سبباً في اكتساب هوبز لعداء رجال الدين من كاثوليك وپروتستانت ، فقد

الأكبر Opus magnum ، ألا وهو «التنين» ولكن معظم مؤلفات هوبز قد استهدفت من جانب معاصريه للكثير من حملات النقد والمعارضة ، فكان على هوبز أن يتصدى للرد على ناقديه ، فضلاً عن أن الخلاف الذى نشب بينه وبين بعض العلماء الرياضيين من رجال جامعة أكسفورد قد أدى إلى استبعاده من الجمعية الملكية Royal Society .

وعلى الرغم من أن هوبز قد لقي عطفاً ملكياً كبيراً من جانب الملك شارل الثانى (الذى كان تلميذاً له فى صغره) فإن آراءه الفلسفية الحرة قد تسببت فى اتهامه بالإلحاد ، فأعرب البرلمان الإنجليزى عن سخطه على كتاب «التنين» ، وأمر بمنع هوبز من إصدار أى مؤلفات أخرى فى الفلسفة الأخلاقية . وهكذا اضطر هوبز فى أواخر أيامه إلى معاودة الاهتمام بالدراسات الأدبية والتاريخية التى كانت شغله الشاغل فى شبابه . وفى هذه الفترة كتب هوبز ترجمته الذاتية ، كما ترجم إلى الإنجليزية كلاماً من الإلياذة والأوديسة . وظل هوبز محتفظاً بكامل قواه الجسمية والعقلية حتى سن متأخرة جداً ، إلى أن توفى عن واحد وتسعين عاماً فى الرابع من شهر ديسمبر سنة ١٦٧٩ .

عرض للكتاب

نزعة هوبز الفلسفية العامة :

إذا أردنا أن نفهم مذهب هوبز السياسى على نحو ما عرضه فى كتابه التنين ، فلا بد لنا بادئ ذى بدء من أن نلقى بعض الأضواء السريعة على الإطار العام لفلسفته . وهنا نجد أن الفلسفة — فى رأى هوبز — تنحصر فى معرفة المعلولات أو الظواهر ابتداءً من الفهم الصحيح للعلل أو الأسباب ، أو هى معرفة العلل أو الأسباب بالاستناد إلى إدراكنا الحقيقى لمعلولاتها أو آثارها . وليست الغاية من الفلسفة نظرية صرفة بل هى عملية محضة : لأننا نستند إلى النظر من أجل

تحقيق غاية عملية فى حياتنا العادية . ولكن على حين كان سيكون يدعو إلى التجربة والاستقراء ، نجد أن هوبز يؤكد بكل قوة أن العلم لا يمكن أن يكون إلاً عقلياً استنباطياً . وكما انفصل كوبرنيكوس عن المدرسيين فى مجال علم الفلك ، وكما ثار عليهم جاليليو فى مجال علم الطبيعة ، وكما عارضهم هارفى فى مضمار علم وظائف الأعضاء ، كذلك نجد هوبز ينفصل عنهم فى مجال العلوم الإنسانية . وهكذا عكس لنا هوبز روح العصر الذى انتسب إليه ، فجعل من مذهبه سلسلة من الاستدلالات الاستنباطية الدقيقة التى حاول فيها أن يتدرج بطريقة رياضية صارمة . وكما صاغ اسپينوزا فلسفته العامة فى كتابه «الأخلاق» على صورة سلسلة من البراهين الهندسية المحكمة ، نجد أيضاً أن هوبز قد سبق زميله الهولندى إلى تطبيق مبادئ العلم الجديد الذى ظهر فى القرن السابع عشر (علم كبلر ، وجاليليو ، وهارفى) على الوجود بأكمله أو الحقيقة الخارجية ككل . ومعنى هذا أن الفلسفة العامة قد أصبحت على يد مفكرى القرن السابع عشر هى «العلم الطبيعى» نفسه ، وقد اكتسب صبغة كلية شاملة . ولكن على حين كان المدرسيون يهتمون بالعلل الصورية والغائية ، جاء هوبز فأعلن أن هذه كلها ليست سوى مجرد أوهام ، ونادى بأن العلل الوحيدة إنما هى العلل الآلية أو الميكانيكية .

وإذا كان فيلسوف مثل ديكارت قد استبقى العقل جنباً إلى جنب مع الحس ، فإن هوبز يؤكد أن العقل نفسه مادة ، وأن التفكير إن هو إلا حركة . فليس ثمة إلا أجسام ، وكل ما يحدث فى الأجسام من ظواهر إنما يرتد إلى حركات . وليس يكفى أن نقول إن «الإحساس» هو نقطة البدء فى كل معرفة ، بل يجب أن نضيف إلى ذلك أيضاً أن الإحساس هو فى ذاته حركة من حركات المخ . ومهما كان من سموات الأفكار ، فإنه ليس ثمة فكرة واحدة لا يمكن ردها فى خاتمة